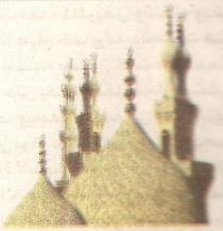

صوت الأزهر

جامعاً وجامعة

رئيس التحرير
سليمان قناوى

www.alazhar.gov.eg

العدد ٦٧١ ـ السنة الثالثة عشرة
الجمعة ١٥ من رمضان ١٤٣٣هـ ٣ من أغسطس ٢٠١٢ م

١٢ صفحة | ١ جنيه

«ماريو روسى» .. عاشق العمارة الإسلامية

بقلم :
د.خالد محمود هيبة

يعتبر المسجد محوراً لجميع أنشطة الإنسان المسلم الدينية والدنيوية، كما يمثل في الوقت ذاته مصدراً رئيسياً للتراث المعماري الإسلامي على مر العصور، فلا وجود لعمارة إسلامية قبل وجوده على الإطلاق، وبتواتر المراحل والحقب الزمنية الإسلامية ارتبط المسجد ارتباطاً وثيقاً بما حوله في بيئته، ليؤكد وحدته مع النسيج العمراني في منطقته؛ مشكلاً بذاته كتلة فراغية مركزية تمثل معلماً معمارياً بارزاً يؤدي فيه المجتمع المسلم أنشطته الدينية والثقافية والاجتماعية عاكساً في ذلك أحد أهم مبادئ الإسلام الأساسية بأنه دين ودنيا، عقيدة وعمل متكاملين ومتلاحمين.

وتميزت مصر بتواتر المراحل الزمنية الإسلامية وتعاقبها منذ الفتح الإسلامي عام (٦٤١م)، وصاحبت كل مرحلة عمارة إسلامية تتميز عن مثيلاتها وبخاصة عمارة المسجد، والذي أبدع في عمارته المعماري المسلم على أرض الكنانة حتى كانت نهاية القرن التاسع عشر، حينما تصاعدت الأحداث السياسية من تدخل أجنبي غربي في شئون البلاد حتى تمام الاحتلال الكامل عام (١٨٨٢م)، لتبدأ مرحلة جديدة تأثرت فيها العمارة في مصر بالغرب ومعماريه، لتسود البلاد حالة من التغريب المعماري نتيجة لإضلاع المعماريين الأجانب بمهمة البناء تبعاً للأنماط المعمارية الغربية، الأمر الذي استمر طيلة النصف الأول من القرن العشرين، وقد امتد ذلك لعمارة المسجد في مصر حينما استعانت (وزارة الأوقاف) بالعديد من المعماريين الأجانب وبخاصة الإيطاليين منهم لتصميم المساجد والمنشآت الدينية أمثال: (فيروتشي) و(تافاريللي) وأشهرهم على الإطلاق (ماريو روسي)، والذي اعتنق الإسلام وقام بتصميم العديد من أبرز وأشهر المساجد المصرية خلال عقدي الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين كمساجد: (أبي العباس المرسي) و(قصر رأس التين- السيد محمد كريم) و(القائد إبراهيم) و(سيدي تمراز) بالإسكندرية، وكذا مساجد: (عمر مكرم) و(الزمالك) و(الطباخين) بالقاهرة وغيرها، لينتقل الفكر المعماري لعمارة المسجد على يد (ماريو روسي) من مرحلة الارتباط بالغرب وتأثيراته الثقافية والحضارية بصورة مباشرة، ليظهر نمط خاص جديد للمساجد في مصر يمكن أن نطلق عليه "نموذج المسجد المصري المعاصر".

ولد (ماريو روسي) في (إيطاليا) عام (١٨٩٧م)، والتحق بأكاديمية الفنون الجميلة في (روما) لدراسة العمارة حيث تخرج فيها عام (١٩١٧م)، ليأتي إلى مصر كأحد المهندسين الإيطاليين العديدين الذين عملوا في مصر في تلك الفترة حيث عمل كمساعد للعديد من هؤلاء ومنهم المعماري (فيروتشي بك) كبير مهندسي القصور الملكية، وكذلك (أنطوان لاشياك) المهندس الخاص بملكي مصر (فؤاد) و(فاروق)، حيث شارك (روسي) في تنفيذ العديد من الأعمال التصميمية والتكميلية بقصر (رأس التين) وقصر (المنتزة) بالإسكندرية، وكذلك بقصر (عابدين) بالقاهرة، وليقترب باستقراره في مصر وبعمله ذلك من دراسة العمارة الإسلامية التي شدته آثارها المعمارية المبهرة؛ حيث قام بدراسة وتحليل الكثير من أعمالها، كما قام برفعها وتصويرها، واستمر كذلك حتى عام (١٩٢٩م) حينما أعلنت (وزارة الأوقاف) عن مسابقة عالمية كبرى لشغل منصب كبير مهندسي الوزارة، وكان موضوع المسابقة عبارة عن تصميم بوابة جديدة لامتدادات مبنى ديوان الوزارة بمنطقة (باب اللوق)، وتقدم في تلك المسابقة العديد من المهندسين ومنهم (روسي)، والذي تنازل مغامراً عن وظيفته المستقرة في القصور الملكية حتى يتمكن من التقدم لتلك المسابقة؛ ليفوز بها متقدماً على ٣٧ مهندساً من مختلف بلدان العالم الإسلامي وذلك على الرغم من خلفيته المعمارية الغربية، وقد ظهر في تصميم (روسي) الفائز توظيفه لعناصر ومفردات معمارية إسلامية لا تتعلق بطراز إسلامي بعينه، ولكنه بالرغم من ذلك فقد نجح في تجميع ممتاز لتلك العناصر وهذه المفردات مع إضافة عناصر أخرى مستحدثة، وذلك بما يعكس اختياراته المنتقاة والمحببة إليه من عناصر ومفردات العمارة الإسلامية التي عشقها فدرسها ليصبح له طابعاً مميزاً بعد ذلك.

ومع بدايات عمله في الوزارة ككبير للمهندسين، تم تكليفه بتصميم مسجد (أبو العباس المرسي) بالإسكندرية، وكان ذلك التكليف هام ذا أبعاد أخرى، حيث كان ذلك المسجد هو المسجد الجامع الأول في الإسكندرية الذي يضم ضريح أحد أولياء الله الصالحين ممن يتجمع حوله العامة والخاصة من أهالي المدينة والمدن المجاورة، في ذات التوقيت الذي كانت تعج فيه الإسكندرية بجاليات أجنبية استطاعت أن تشيد لنفسها العديد من الكنائس لمختلف المذاهب والطوائف المسيحية وكذا المعابد اليهودية الكبرى لتبدو الإسكندرية وكأنها مدينة أوروبية تقريباً، حيث لم يكن بها مسجداً على ذات المستوى من العظمة والبهاء التي كانت عليها تلك الكنائس وتلك المعابد، فكانت الحاجة الملحة لتصميم مسجداً جامعاً كبيراً ذو فخامة وجمال وعظمة وأبهة يدركها زائر المدينة حيث يطل في ذات الوقت على ساحل الميناء الشرقي ليصبح وكأنه (كاتدرائية إسلامية)، وبذلك العمل المعماري المميز بدأت أولى خطوات التمازج الفكري في عمارة المسجد لدى (ماريو روسي) ما بين خلفيته ودراسته المعمارية الغربية من جهة، وواقعه الحياتي الشرقي الذي فتن فيه بالعمارة الإسلامية من جهة أخرى، فجاء تصميم (روسي) للمسجد على نمط وشكل لم يكن معروفاً في تصميم المساجد، حيث اتخذ مسقطه الشكل الثماني الأضلاع وهو ما لم يكن له نظير تاريخي في العمارة الإسلامية سوى في مبنى (قبة الصخرة) بالحرم القدسي الشريف، والذي صمم كإنشاء تذكاري لحفظ الصخرة الشريفة، وهو ما قد يكون أراد به (روسي) أن يجعل من المسجد الجامع السكندري الأشهر مسجداً ذو مرجعية تذكارية نظراً لما يمثله من أهمية بالنسبة للمدينة وسكانها وزائريها، وفي ذات الوقت لا يخلو التصميم من مؤثرات ناتجة عن خلفيته المعمارية الغربية كالأخذ من ملامح عمارة عصر النهضة بتوظيفه للقبة الرئيسية المركزية ذات الغطاء المزدوج والقائمة على ثمانية أعمدة، وهي القبة التي لم تنفذ لأسباب إنشائية حيث تم استبدالها فيما بعد بفانوس من عناصر العمارة الإسلامية في العصر المملوكي، وقد استمر تشييد هذا المسجد لمدة ١٦ عاماً متصلة بداية من عام (١٩٢٩م) وحتى عام (١٩٤٥م)، وذلك بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية والتي تعرضت خلالها الإسكندرية لغارات من قوات المحور؛ ليتوقف العمل نهائياً في المسجد وحتى انتهاء الحرب.

وقد شهدت تلك الفترة خلال عقد الثلاثينيات من القرن العشرين قيامه بأعمال التصميم للعديد من المساجد الأخرى كمسجد (الطباخين) بالقرب من ميدان (عابدين) بالقاهرة عام (١٩٣٣م)، وذلك في ذات محل مسجد أخر قديم مهدم من القرن الرابع عشر الميلادي، وقد جاء تصميمه لذلك المسجد غير نمطي، حيث قام بكسوته من الخارج بالطوب الأحمر الحراري، وذلك لإكسابه شخصية مستقلة في مواجهة مجموعة من المباني الحكومية المحيطة به وكذلك مبنى (سراي عابدين) ذاتها التي تقع على مسافة قريبة منه، ليكتسب المسجد شخصية فريدة ذات أبعاد بصرية استطاعت أن تعطي للمسجد قيمته الرمزية الكبيرة بجوار تلك المباني، وكعادته في البحث عن عناصر معمارية إسلامية تقليدية شهيرة وإعادة استخدامها، استخدم (روسي) في ذلك المسجد العقد الفارسي المدبب الشهير على غرار المستخدم في العمارة الإسلامية في بلاد مابين النهرين وكذا العمارة الإسلامية الفارسية والهندية مع إدخال العديد من العناصر الملونة الأخرى للتباين مع كمية اللون الأحمر الناتج من تأثيرات الطوب الحراري.

ومع بداية عقد الأربعينيات، وأثناء الحرب العالمية الثانية، ونظراً لكونه ايطالياً مقيماً بمصر فقد تم اعتقاله بمعرفة الجيش البريطاني عام (١٩٤١م) ضمن من تم اعتقالهم تحفظياً من الإيطاليين والألمان؛ ليبقى رهين المحبس حتى عام (١٩٤٤م) بأحد معسكرات الجيش البريطاني بمدينة (فايد)؛ ليخرج من تلك الأزمة بتأثيرات عدة أدت به في النهاية إلى التحول إلى الإسلام عام (١٩٤٦م) حين أشهر إسلامه، وليعود إلى العمل كمستشار لوزارة الأوقاف ليستكمل مسيرته في وضع العديد من التصميمات لمساجد شهيرة ومنها مسجد (القائد إبراهيم) في (ميدان الرمل) بالإسكندرية عام (١٩٤٨م) حيث نجح في وضع تصميم لمسجد استطاع أن يفرض شخصيته مابين المباني والعمارات الشاهقة القائمة حوله، مع تصميمه لمئذنة فريدة أصبحت كعلامة مميزة للميدان والمنطقة المحيطة، وإن كانت تأثيرات فكره المعماري الغربي لاتزال قائمة في ذلك المسجد في العديد من العناصر والمفردات كاستخدامه للساعة الخارجية بمئذنة المسجد، وكذا التشكيل الكتلي للمبنى والمغطى بقبة واحدة رئيسية مع استخدام مواد معمارية غير شائعة الاستخدام في عمارة المسجد في مصر كالقرميد الأحمر وغيره، وكذلك تصميمه لمسجد (عمر مكرم) بميدان (التحرير) عام (١٩٤٥م)، ومسجد (الزمالك) بالقاهرة، ومسجد (سيدي تمراز) ومسجد (مطار النزهة) ومسجد (السيد محمد كريم) بسراي (رأس التين) بالإسكندرية.